الاتجاه الإنساني في أدب فيكتور هيجو وحافظ إبراهيم
–دراسة مقارنة –

آمال برحمة
كلية الاداب و اللغات
جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس

الملخص:
يتناول المقال فكرة الاتجاه الانساني بين فيكتور هيجو و حافظ ابراهيم دراسة مقارنة، حيث يلتقي كلاهما في نقاط متشابهة كثيرة سواءا في وجهات النظر أو الظروف التي عايشها كل من الاديبين في حياته، و نتاج هذه الظروف ظهرت رواية البؤساء في دعوتها الواضحة للدفاع عن الطبقة المعدمة، و هذا ما كان السبب الرئيسي في تعريب حافظ ابراهيم لهذه الرواية، و منه تمت الدراسة المقارنة القائمة على كشف نقاط التشابه و الاختلاف بين فيكتور هيجو و حافظ ابراهيم
الكلمات المفتاحية: الاتجاه الانساني، فيكتور هيجو، حافظ ابراهيم، البؤساء.

Abstract:
this article discusses the idea of human contact between Victor Hugo and Hafez Ibrahim, a comparative study, where the two points are very similar, both in views or circumstances that are experienced by each of adeeb in his life, and the product of these terms and conditions on the back of the novel Les Misérables in its call for clarity to defend the power of the poor, and this was the main reason why you know Hafez Ibrahim for this novel, and it has been the comparative study based on the revealed similarities and differences between Victor Hugo and Hafez Ibrahim
Keywords: human touch, Victor Hugo, Hafez Ibrahim, The Miserable.

إن الجزء الحي من هذه الحياة يتجسد في عالم الأدب بألوانه وأجناسه، بما يحققه من ترابط بين الأزمنة والثقافات المختلفة لمجمل القوميات، وكان الأدب العالمي أفضل مثال لهذا الترابط بين الآداب الغربية والشرقية، حيث مثل الوحدة بين الأفكار الإنسانية والأخلاق السامية، فحقق بذلك استمراريته عبر الدراسات النقدية المتعددة، والتي ساهمت في ديمومة القيمة الفنية للأعمال الأدبية.

إن الحديث عن قيمة الإنسان لطالما شكل أهمية كبرى في العديد من الدراسات خاصة تلك التي تعلقت بمسألة حقوق الإنسان على رأسها الحرية والعدالة والمساواة، حيث أثبت التاريخ أن إنسانية البشر أهدرت من قبل البشر

أنفسهم، بمعنى أن الطبقية والعنصرية كانتا أحد العوامل التي ساعدت في إهدار حقوق الفرد، كما أن الحروب والمعارك أدت إلى الاستبداد والظلم والقهر.

وكانت فترة العصور الوسطى التي شهدتها القارة الأوروبية أحد أبرز المراحل التاريخية التي عرفت الانحطاط على المستوى الثقافي والاجتماعي، فقد كان النظام الاجتماعي السائد هو الطبقية القائمة على التفرقة بين الفئة النبيلة المالكة وطبقة الفقراء الذين عانوا من الفقر والجهل والظلم وضياع كل حقوقهم في الحياة. وفي أواخر فترة العصور المظلمة بدأت بوادر النزعة الإنسانية بالظهور بداية مع الشاعر الإيطالي دانتي أليجيري Danty Alghiri، ثم تطورت على يد تلميذه بترارك Petrarque الذي ركز على قيمة الإنسان.

ومما أثبت عبر التاريخ أن كل من الدول الغربية والدول الشرقية قد ارتبطت فيما بينهما من خلال علاقات علمية وأدبية، ومن خلال هذه العلاقات تحققت تأثيرات بارزة بين أعلام الثقافتين. ولقد بدأت الدراسات المقارنة تسعى إلى كشف هذه العلاقات، واكتشاف عوامل وظروف التأثر والتأثير.

ومنه فإن موضوع هذا المقال يقوم على دراسة مقارنة للاتجاه الإنساني لدى كل من الأديب والشاعر والسياسي الفرنسي فيكتور هيجو من خلال روايته البؤساء وأشعار المبدع العربي حافظ إبراهيم الذي يعد أحد أبرز أعلام المدرسة الإحيائية في مصر مع نهاية القرن التاسع عشر، حيث عمل رفقة مجموعة من الشعراء والأدباء والمثقفين والمفكرين على نهضة الأدب العربي.

ومن هذا المنطلق حاولت أن أسلط الضوء على بروز الاتجاه الإنساني في رواية "البؤساء" لفيكتور هيجو، وفي شعر حافظ إبراهيم، مع الإحاطة بالمحطات والتجارب الرئيسية الهامة في حياتهما الشخصية والتي ساهمت في إنسانية الشاعرين الظاهرة والبارزة في أعمالهما السابقة الذكر.

ويقوم هذا البحث على مجموعة من الإشكاليات الهامة نذكر منها:

1. ما مفهوم الاتجاه الإنساني؟ و كيف نشأ هذه الاتجاه؟
2. ما هي العوامل الأساسية التي ساعدت على ظهور الاتجاه الإنساني على الساحة الأدبية الفرنسية؟
3. هل للظروف المعيشية التي عرفها فيكتور هيجو في حياته دور في إنسانيته البارزة في رواية "البؤساء"؟ وكيف كان تأثيره في الأدب العربي؟
4. ما العلاقة التي جمعت بين كاتب "البؤساء" ومعربها ابن النيل؟
5. وما مصدر إنسانية حافظ إبراهيم البارزة في شعره؟

و تكمن أهمية هذه الدراسة في إبراز الجوانب المشتركة بين فيكتور هيجو وحافظ إبراهيم خاصة في قضية الإنسانية التي مثلت أولوية هامة لدى كل منهما، بالإضافة إلى الرسالة التي أخذها كل منهما على كاهله وهي

أن للإنسان قيمة وأهمية بالغة في تكوين المجتمع وفي سير الحياة في نظام جيد وأي اختلال يصيب الإنسان هو اختلال في هذا النظام الاجتماعي، فلابد من الموازنة بين الجانبين حتى تتوفر للبشر الحياة السليمة تستند في أساسها على أمور ثلاثة هي الحرية والمساواة والعدالة.

و تحديد المنهج المتبع في الدراسة يتوقف على هدف البحث المراد الوصول إليه والإجابات التي يسعى لجمعها فالمناهج المتبعة في هذه الدراسة هي المنهج المقارن . يستخدم المنهج المقارن لتوضيح نقاط الاتفاق والاختلاف بين الشاعرين ومواطن التأثير والتأثر بينهما وتتبع ملامح الاتجاه الإنساني في كل من رواية البؤساء وشعر حافظ إبراهيم.

و إن أول من أشار إلى علاقة حافظ إبراهيم بفيكتور هيجو هو روحي الخالدي في كتابه تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هيجو الذي ظهر سنة 1912. وكذلك فعل طه حسين في كتابه حافظ وشوقي سنة 1937 حيث أبدى رأيه في ترجمة حافظ للبؤساء.وقد تم ذكر ترجمة حافظ للبؤساء في مقدمة ديوانه التي كتبها أحمد أمين سنة 1939، أما دراسة عباس محمود العقاد شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي سنة 1937 فقد تناولت مسألة الترجمة دون التفصيل فيها، حيث اهتم بشعر حافظ ودوره في إحياء الشعر العربي.

أما كتاب مُحَمَّد غنيمي هلال دورا لأدب المقارن في توجيه دراسات الأدب العربي المعاصر فقد تناول مسألة الترجمة والتعريب التي انتشرت أيام النهضة حيث أباح المترجم لنفسه تغيير ما يريد من أحداث ومشاهد، ومن الأمثلة التي استعان بها الكاتب ترجمة حافظ إبراهيم للبؤساء.

ونستنتج من هذا أن هاته الدراسات لم تتعمق في دراسة علاقة شاعر النيل بشاعر فرنسا واقتصر الأمر على الإشارة فقط لترجمة البؤساء لا غير- ولو أن مُحَمَّد غنيمي هلال قد أشار لهذا بشكل أفضل- ولعل السبب هو اهتمام النقاد بفكرة إحياء الشعر وتدوين الجهود التي بذلت في سبيل نهضة العالم العربي في كل مجالات الحياة. والاهتمام كذلك بتسجيل حياة الشعراء والمفكرين والمصلحين وغيرهم، حتى يتسنى للأجيال القادمة الإطلاع على هاته الأسماء المميزة. وما أؤكده عن الأعمال السابقة أنها ساعدتني كثيرا في الدراسة ناهيك عن الأفكار الجديدة التي لم أكن لأواصل البحث فيها لولا توفر هذه الدراسات.

عقدت دراسة مقارنة بين رواية البؤساء وشعر حافظ إبراهيم. فخصصت المقال لمظاهر النزعة الإنسانية بين البؤساء وشعر حافظ وكانت الدراسة على المستوى الاجتماعي و المستوى السياسي وتصوير مآسي الحروب، وفضح الاستغلال الطبقي ومحاربة الاستعمار. وجاءت الخاتمة كحوصلة شاملة لهذا المقال.

مقارنة على المستوى الاجتماعي:

نقل الأدب شعرا ونثرا جوانب مختلفة ومتعددة للحياة الإنسانية، وعبر الأدباء خلاله عن مختلف مظاهر النزعة الإنسانية، حيث صوروا عالم الطفولة بمآسيه وآلامه. كما وصفوا عالم المرأة وما يرتبط بها من سوء معاملة واضطهاد وغيره، كما نقلوا نماذج مهمة عمن مثلوا القيم الأخلاقية الرفيعة أفضل تمثيل«فموضوع الآداب والفنون مضمون إنساني أصيل، فهو يعرض الحياة بشكل ملموس، وينقلها بشعور وإحساس، إنه يحرك الخيال، ويحطم قوالب العادات، ويعبر عن رؤى البشر، وأشواقهم المختلفة، ويحود مختلف العناصر الثقافية في مجتمع ما، أو في عهد ما، ويجسد الجمال ويقدم نفسه كشيء يحمل غبطة مجردة، وإنه على أحسنه يبعث شعورا بالسمو الخلقي[i]». فما يهم الأديب في آخر الأمر هو خدمة البشرية عبر تشجيع وتحفيز الإنسانية والحرص على تحقيق العدل والمساواة بين أفراد المجتمع البشري، قد يظهر للبعض أن هذه الفكرة تنبع من يوتوبيا أفلاطون وتصدر عن آمال عالية لكنها تظل في الأخير رغبات يجسدها الأدب آملا في حدوثها و تجسدها على أرض الواقع.

ولعل الخطاب الذي ألقاه الأديب الأمريكي وليم فوكنر William Faulkner لدى تحصله على جائزة نوبل للآداب عام 1949 أحسن رأي على دور الأديب في هذه الحياة« إن من واجب الأديب ألا يجعل مجالا في فنه لشيء غير الحقائق العريقة. حقائق القلب تلك الحقائق الكلية التي تصبح كل قصة بدونها عابرة وفاشلة، إنها حقائق الحب والشرف والشفقة والكبرياء والتعاطف والتضحية. فإن لم يصل إلى شيء من ذلك فسيظل يكتب وحقت عليه اللعنة، إذ لن يكتب عن الحب، وإنما عن الشهوة، وعن الهزائم التي لا يخسر فيها أحد شيئا ذا قيمة، وعن انتصارات لا أمل فيها خالية من التعاطف والرحمة، وستبقى أحزانه طافية على السطح لا تصل إلى العظام دون أن تترك أية ندوب[ii]». إذن فالأدب وسيلة نافعة في يد الأديب للتغيير.

1-عالم الطفولة:

يتصور المرء عالم الطفولة دنيا خاصة بالضحك، والمرح، والبراءة، والنقاء، واللعب والفرح، والسعادة، فعالم الطفولة ظل وسيبقى عالما من الطيبة والبراءة الخالصة التي لا تشوبها شائبة من زماننا، ولا تطاله أفكار وحقائق واقعنا المظلم في أغلب مظاهره.الطفولة «تمثل كل ما في الطبائع البشرية من خير وعفوية وطهارة، ويتضوع منها عبير الإنسانية الصافية المتحررة من كل الشوائب. وهي تراود خيال الفنان وقلبه وذهنه وتشده إلى منطلقه الهنيء البريء، وترمز في ضميره للطبيعة، والقرية والريف والناس الطيبين[iii]». فالأديب والرسام وغيرهما من الفنانين يجدون في عالم الطفولة مهربا لصفاء الروح ومتنفسا يحيا الأمل فيه مجددا فلا يستسلم من الحياة، ويجد في الطفولة وسيلة للتعبير عن شكله وصفاته وحقيقته والبقاء على الحقيقة الأولى للبشر وهي الإنسانية. فقد وجدت الطفولة في عالم الأدب وفنونه وأشكاله وأجناسه مسرحا وفسحة للعب وبيئة مهيأة لاستقبال نفوس طاهرة لم تتلون بألوان الواقع، فهي لتزال قابعة في الحقيقة الأولى لبني آدم.

تظهر في رواية البؤساء العديد من الشخصيات الطفولية وهي كالتالي: جيرفييه الصغير le Petit Jervier، وكوزيت Cosette، وغافروش Gavroche، وولدي غافروش الصغيرين(طفلين صغيرين رافقاه كانا يناديانه أبي) و إبونين Eponine و إزلما Azelma.وتتحدث الرواية في البداية عن هذا السجين البائس المسمى جان فالجان، وتصور لنا يوم الإفراج عنه بعد قضاء تسعة عشر سنة في سجون باريس، وكيف تسلم الجواز الأصفر من السجان بعد أن صادق على قرار إفراجه.

وانطلق جان فالجان سيرا على الأقدام عبر جبال الألب الباردة نحو أي مدينة تؤويه وتسد جوعه، لكن رحلته تنتقل من حالة سيئة إلى حالة أسوء بعد المعاملة الشنيعة التي لاقاها من أهل البلدة بعد أن طرق كل باب، وجال في كل فندق، لكنه طرد وشتم، بل وعاد للسجن مجددا لكنه تلقى نفس المعاملة، ولشدة إعيائه وإرهاقه جر أطرافه لجوار كلب وحتى الحيوان نفسه طرده. فلم يجد أمامه غير الكنيسة قضى فيها ليلة وحيدة كان من شأنها قلب عالمه رأسا على عقب. وبعد رحيله من الكنيسة وفي رحلته الخاصة نحو التغيير والشفاء التقى جان فالجان البائس بأول طفل في الرواية جارفييه الصغير، هذا الطفل الذي اعتاد عزف الناي، والرقص في الطرقات عله يسر الناظرين ويتلقى منهم علامة الإعجاب والرحمة قطعة الأربعين سو.

ويصور هيجو مشهد جان فالجان وهو جالس على ضفة النهر، وذهنه يسبح في عوالم أخرى فلو أطلقت عليه رصاصة لما شعر بها، وبينما هو كذلك مر بجانبه طفل صغير يغني و يرمي نقوده في الهواء فرحا، وفجأة تدحرجت قطعته النقدية إلى فالجان الذي داس عليها بقدمه التي تصلبت من الأعمال الشاقة والحذاء المتهرئ الذي عجزت المسامير الصدئة عن جمع شتاته « أدار رأسه فرأى غلاما صغيرا يتقدم في ذلك المجاز، غلاما من غلمان سافوا لا يزيد عمره على عشر سنوات يتغنى وآلته الموسيقية الشبيهة بالكمان على جنبه وصندوقه الخاص بسمك المرموط على ظهره[iv]».

فحاول وحاول إزاحة هذه القدم الحجرية عله يأخذ قطعته النقدية ومهما توسل لفالجان وبكى لم ينبس بكلمة. وظل الفتى على هذه الحال حتى نهره فالجان وطرده فغادر الطفل باكيا متحسرا على خسارته. ومما يصوره فيكتور هيجو في هذا المشهد الاضطهاد الذي يتعرض له الطفل فبعد يوم من العمل والشقاء تحصل على هذه القطعة النقدية التي قد تساهم في إبعاد شبح الجوع عنه وعن عائلته، ولأنه طفل ضعيف ما كان عليه غير الاستسلام، والإذعان لهذا التصرف القاسي.

ولا يمكن للقارئ أن يطلع على البؤساء دون أن يغمره نوع من المحبة والاهتمام لكوزيت الصغيرة. هذه الطفلة التي كانت محركا هاما في أكثر الأحداث المهمة التي تصاعدت في بداية الرواية، فقد مثلت كوزيت الأمل لوالدتها خاصة بعد الحياة البائسة التي عاشتها الشابة الجميلة فانتين Fantine التي تركت ابنتها الصغيرة لدى عائلة

تيناردييه Thenardier هذه العائلة الجشعة التي طالبتها في كل مرة بمصاريف إضافية لقاء العناية بابنتها وتوفير كل الضروريات التي تحتاجها من أكل وشرب وملبس ومبيت وعناية صحية.

وقد تركت فانتين ابنتها لدى هذه العائلة وهي في سن ثلاث سنوات، وتركت كذلك ثمانون فرنكا لتوفير كل ما تحتاج إليه الطفلة «بعد نفاذ الثمانون فرنكا الخاصة بكوزيت. وفي الشهر التالي كانا ما يزالان في حاجة إلى المال، فحملت المرأة ملابس كوزيت إلى باريس حيث رهنتها في دون بيتييه مقابل ستين فرنكا، حتى إذا نفذ هذا المبلغ شرع تيناردييه وزوجته ينظران إلى الطفلة الصغيرة نظرتهما إلى طفلة يؤوياها صدقة وإحسانا، وعاملاها على هذا الأساس. وإذ لم يبق لديها أي ملابس، فقد ألبساها قمصان طفلتيهما القديمة وتنانيرهما العتيقة، يعني أنهما ألبساها أسبالا بالية[v]».

فتعاملوا مع كوزيت من يومها باعتبارها خادمة البيت والقائمة على تنظيفه وتلبية طلبات ابنتي تيناردييه الشجع، ولقد وصفها فيكتورهيجو بعبارة جميلة« زهرة تعيش في البؤس[vi]».وشهدت الطفلة البريئة كل أنواع البؤس والشقاء والعذاب من هذه العائلة.

ولطالما اعتبرت السيدة تيناردييه كوزيت مرضا مستعصيا، وزاوية مظلمة تنغص الحياة على ابنتيها إزلما وإبونين، وتصورتها مصدرا خانقا يسلب الهواء والراحة « ولكن الغريبة الصغيرة خدمتهما فحولت الضربات إلى جسدها هي. وهكذا هي لم يصب إبنتيها غير الملاطفات. فما إن تتحرك كوزيت حركة حتى ينهال على رأسها وابل من ضروب العقاب القاسي الذي لا تستحقه، كانت طفلة رقيقة ضعيفة لا تعرف شيئا عن هذا العالم[vii]».

وقد ذكر هيجو بعض الأعمال التي قامت بها طفلة لم تتجاوز سبع سنوات، حيث كانت كوزيت تكنس الغرف والفناء والشارع، وتشتري الحاجيات المنزلية، وتغسل الأواني والملابس، وتحمل الأحمال الثقيلة، كما تحمل دلاء المياه من النهر للبيت وقد كانت المسافة بينهما بعيدة « كان مما يمزق القلب أن ترى في أيام الشتاء الباردة إلى هذه الطفلة البائسة التي لم تتجاوز السادسة ترتجف تحت الخرق البالية التي كانت ذات يوم فستانا من الخام، كانسة الشارع قبل مطلع الفجر بمكنسة ضخمة تحملها بيديها الصغيرتين الحمراوين، وقد ترقرقت الدموع في عينيها الواسعتين[viii]».وبينما هي على حالها حتى لمحت رجلا ضخم البنية يرتدي ملابس أنيقة تدل على طبقته الاجتماعية الراقية، فاقترب منها وسألها ما الذي تفعله طفلة صغيرة في هذا الوقت وفي هذا البرد. ولسذاجتها وبراءتها تقدمت إليه وتحدثت معه، وبعدها سألها عن اسم صاحبة العينين الزرقاوين، فردت أن اسمها كوزيت وهي تعيش لدى عائلة تيناردييه فأدرك حينها فالجان أنها الأمانة التي وكلت إليه للعناية بها وحمايتها، ومنذ لقائها به لم تشهد كوزيت يوما بائسا بعدها.

ونجد في الجانب الآخر في البلاد العربية شاعر النيل حافظ إبراهيم يؤكد على أهمية العناية بالطفل والاهتمام به، والتركيز على تنشئته نشأة صحيحة وحمايته من براثن الحياة المعهودة في بؤسها وفقرها واضطهادها. وألقى حافظ على مسامع جمع غفير قصيدة هامة في احتفال جمعية الطفل سنة 1928، وهو يقول فيها:

أيها الطفل لا تخف عنت الدهـ *** ـر ولا تخش عاديات الليالي

قيض الله للضـعيف نـفوسا *** تعشق البر من ذوات الحجال

أي ذوات الحجال عشتن للبر *** ودمتـن قـدوة للـرجـال

لم يكونوا ليدركوا المجد لـولا***كن أو يسلكوا سبيل المعالي[ix]

وعرف حافظ إبراهيم العديد من المواقف الإنسانية في حياته، فقد كان كريما ومحسنا ومشفقا على المحتاج والبائس، وكان شعاره في الحياة« دمع السرور مقياس الشعور[x]». وكثيرا ما أصر على مواقفه خاصة ما تعلق بالطفولة ودعمها وتشجيعها، ويقول في هذا:

أنقذوا الطفل إن في شقوة الطفـ ***ل شـقاء لـنا على كـل حـال

إن يعش بائسا و لم يـطوه البؤ *** س يعش نكبة على الأجـيال

رب بؤس يخبـث النفس حتى ***يطرح المرء في مهاوي الضلال

أنقذوه فربما كان فـيـــه *** مصلح أو مغامر لا يـبـالي[11]

فحافظ يصر على العناية بالطفل، فإهماله يؤدي إلى اختلال النظام الاجتماعي ويسرع في ظهور الجريمة والعادات السيئة، فلهذا كانت العناية بالطفل كالاعتناء بالشجرة المثمرة. و عرفت لحافظ إبراهيم هذه القصيدة فقط خاصة أنه لم يمر بتجربة الإنجاب و لم يعرف طعم الأبوة، بل افتخر بأداء أعضاء جمعية الطفل و شجعهم على المتابعة.

2-التضحية:

وعندما نواصل مجال حديثنا عن القيم الأخلاقية التي صورها فيكتور هيجو في روايته نجد أبرزها التضحية والتي تعد أحد أبرز القيم الإنسانية رقيا، حيث تصور لنا تضحية شخص معين قيمة الإنسان ودوره في إحلال الحق والعدالة والمساواة.وقد كانت التضحية أكثر القيم استخداما في رواية البؤساء ولن ننكر أن لفكرة التضحية دور هام في وصول الرواية للعالمية واعتبارها أحد أبرز الأعمال الأدبية الإنسانية الخالدة.

وكانت أولى التضحيات المتناولة في الرواية تضحية جان فالجان بتسعة عشر عاما في السجن لأجل فعل اضطره الجوع إليه وهو سرقة رغيف خبز لأولاد شقيقته، فقد ضحى من سن صغيرة بحياته بأكملها لأجلها ولأجل أولادها « لم ير فالجان بدا من القيام بمعاش أخته وأولادها فجعل يعمل لبطنه وبطونهم ويكد في طلب الرزق وأجره في أيام موسم حرفته لا يزيد عن ثمانية عشر صلديا. فإذا انقضت تلك الأيام انطلق إلى جماعة الحاصدين

في المزارع فأصاب رزقا له ولأهل بيته[12]». تتواصل أحداث الرواية لتصل إلى جزئية هامة بنيت عليها بقية الأحداث، وتتمثل هذه الجزئية في الجرم الذي ارتكبه جان فالجان، حيث سرق رغيفا من الخبز كي يشبع بطونا صغيرة حمل أوزارها على مسؤوليته ولكن تم القبض عليه بالجرم المشهود، وسجن في سجون باريس المظلمة وقضى فيها – لقطعة خبز– تسعة عشر سنة من عمره. وهذه أول التضحيات التي تعرض إليها هيجو في البؤساء حتى تحمل الرواية الطابع الإنساني وتصور لنا جانبا سلبيا من المجتمع الفرنسي الذي عرف برقيه وبهرجته المفرطة، وسلوكياته المبالغ فيها.

وما يلفت النظر حقا في الرواية أن هيجو عبر عن الموقف الذي اتخذته فانتين لتوفير حياة طيبة لابنتها بأسلوب جاد، فقد نقل إلى المجتمع فكرة هامة جدا تتمثل في أن المهنة التي مارستها فانتين نتيجة للظروف التي وفرها المجتمع الفرنسي لها حتى سارت في هذا المجال، وأسوء قدر لفانتين أن هذا المجتمع ذاته كان المعارض الأول لها. فنجد هيجو يقول:« أن شريعة يسوع المسيح المقدسة لتهمين على حياتنا، ولكنها لما تنفذ إليها بعد. يقولون أن الرق قد زال من الحضارة الأوروبية. هذا خطأ. إنه لا يزال قائما، ولكن المرأة وحدها ترزح اليوم تحت ثقله، وهو يدعى البغاء، أجل إن ثقله ملقى على المرأة، يعني على اللطافة، على الضعف، على الجمال، على الأمومة، وليس هذا خزيا من مخازي الرجل الثانوية[13]».

وتمت تضحية فانتين لأجل ابنتها، وتلاشى أمل الإنسانية للأبد، فقد أعلنت فانتين أنها سلعة للعرض والمقايض الأكبر هو المتحصل عليها، رغم أنها كانت ترضى ببعض النقود القليلة التي لم تكف حتى لسد جوعها أو شراء شمعة تضيء كهفها المظلم« تملق المرأة فتجوع وتعرى، فتركن إلى الصبر والتجمل فيضيق عن ذلك ضعفها فتفزع إلى السعي وراء الرزق من أشرف وجوهه فيقعد بها الدهر، فتبيع الناس نفسها، فيتنافسون في المساومة، حتى إذا أظفروه بامتلاك تلك النفس المعروضة في سوق الشقاء، سجلوا عليهم فعلتها تلك في باب الزنا، وتغاضوا عن تسجيلها في باب الرق وهو بها أحق وهي به ألصق[14]». وبالرغم من حقيقة أن المهنة التي انتهجتها فانتين كانت منبوذة إجتماعيا إلا أن تضحيتها كانت من أبرز مظاهر الإنسانية التي شملتها رواية البؤساء، فتضحية الأم لأجل أولادها لا حدود لها، وقد يصل بها الأمر للتضحية بنفسها لأجل راحتهم فلن يكون جسدها معفى من التضحية.

ولم يقتصر الحديث عن التضحية في البؤساء فقط بل نجد في الجانب الآخر حافظ إبراهيم يعرض للقارئ العربي قيمة التضحية ودورها في تغيير الواقع من شكله السلبي إلى شكله الإيجابي، وعلى رأس هذه التضحيات التضحية في سبيل الوطن، فقد مجد فكرة التضحية والجهاد في سبيل الوطن وهذا يعود لسببين أولهما شخصيته العسكرية التي عرف بها حيث عاش العديد من التجارب القاسية في وطنه وخارج الوطن خاصة أثناء المهمة التي أوكلت إليه

في السودان، أما السبب الثاني فنفسه الثائرة وقريحته الشعرية التي تأبى الرضوخ للمستعمر والموافقة على أوضاع فظيعة من قتل ونهب وتهجير، لهذا فقد حث على الحرب والقتال والتضحية بالمال والحياة في سبيل مصر وفي سبيل أي وطن محتل يقبع تحت راية الاستبداد. أغلب قصائد حافظ إبراهيم الوطنية لم تحمل بين سطورها تلك العاطفة الثائرة ضد الاحتلال الإنجليزي – رغم أنه لقب بشاعر الشعب– فقد عبر عن معاناتهم و اضطهادهم لكن دون أن يساهم في قيام ثورة أو يحرض على فعل كفاحي، فكثيرا ما طلب منه رفيقه أحمد أمين نشر قصائده في الجرائد أو الإذاعات، لكنه رده كان كالتالي « أذممني ما شئت فلن أنشر هذا الشعر لأني لا أريد أن أحال على المعاش الآن[15] ».

مقارنة على المستوى السياسي:

كان الإنسان منذ العصور القديمة وإلى حد اليوم مؤمنا بفكرة الحماية والدفاع عن نفسه وعن أهله أو بلده و خلال انتقاله من مرحلة إلى مرحلة قام خلالها باستغلال الوسائل المتاحة لهذا الغرض الأساسي، وبالطبع كانت النتيجة الحتمية لفكرة الحماية والدفاع عن النفس نشوب العديد والكثير من الحروب.

وقد نتج عن أغلب الحروب مجازر تقام في حق البشرية عبر الزمن، حيث كانت المجازر عبارة عن الصورة التي يسعى طرفي الحرب لإظهارها لبقية العالم، كنوع من التحذير أو التهديد أو التعريف بقوة دولة معينة أو قائد معين. وهذا ما سجله التاريخ من أزمنة غابرة وخاصة في زمن الحربين العالميتين، حيث تم إحصاء أكبر عدد من الخسائر المادية والبشرية، ناهيك عن وجود مدن كبرى أبيدت تماما، كما دلت هذه الحروب وأكدت على أن عدو الإنسان الأكبر والأقوى هو الإنسان نفسه، وإذا ما أزيحت عنه صفة الإنسانية صار إعصارا يلتهم كل ما يعيق طريقه، مخلفا من ورائه دمارا لا يمكن معالجته.

1–الفقر:

إن ظاهرة الفقر التي تحدث عنها هيجو في رواية البؤساء شملت الشخصيات الرئيسية للرواية، من فقر فالجان الذي أودى به إلى براثن السجن، وحاجة فانتين الشديدة التي جعلتها سلعة في أيدي الذئاب تباع وتشترى، وحالة القهر والعوز التي عاشت بها كوزيت الصغيرة، والتجربة القاسية التي عاشها الشاب ماريوس ولو أن فترة فقره كان لها الدور الكبير في بناء شخصيته. ففي البداية نجد جان فالجان الذي قضى تسعة عشر سنة من عمره في السجن لسبب وحيد هو محاولة سرقة رغيف خبز يسد به جوع سبعة أطفال صغار « كان فالجان من أسرة رقيقة الحال تعمل في الأرض ببلدة بري وكان أبوه يشذب الشجر، ولم تكن له حرفة سواها فتربى هذا البائس في معهد الجهل، فلم يجلس إلى مؤدب ولا معلم ولم يرتضع بلبان العلوم والمعارف فمر قدما جهولا[16] ».

ثم ينتقل فيكتور هيجو إلى تصوير ظاهرة الفقر وآثارها في حياة إمرأة عاجزة « فانتين ولدت تلك البائسة في قرية مونتراي سيرمير ولا تعرف لها أبا ولا أما ولا من يمت إليها بحل القرابة، ولا يعرف لناس من أمرها أكثر من ذلك. ولما بلغت العشرة من عمرها، خرجت تطلب وجوه الرزق وتلتمس أسباب القوت في ضواحي تلك القرية[17] ». فصور لنا نشأة هاته الفتاة وطفولتها، فبالرغم من فقرها لم تعهد الجانب السلبي من الحياة بعد، خاصة وأن الفقر في الأرياف لا يعد ضعفا أو نقصا أو مظهرا من مظاهر الحياة القاسية والمعيشة الصعبة، في حين أن لانتقال فانتين إلى باريس نتيجة مهمة هي أن الحياة التعيسة التي هي مقبلة عليها من فقر وحاجة زد على ذلك الإنجاب دون زواج له من الأهمية الكبرى من المدينة ما يجعل الحياة لا تطاق ولا تستحق عيشها.

وكان لحافظ إبراهيم نظرته الخاصة وتعبيره الشخصي عن الفقر أو عن ظاهرة الفقر في مصر خاصة خلال الفترة التي ظلت فيها أرض الكنانة تحت سيطرة الاستعمار الإنجليزي، رغم أن الوصف الذي تحدث عنه حافظ يختلف تماما ويبتعد عن تجربته الخاصة للفقر–فحياته الشخصية تثبت أن حافظ إبراهيم عهد الفقر والجوع و الحاجة، من يوم وفاة والده وكفالة خاله له. فقد عاش في فترة من أصعب الفترات التي مرت بها مصر، وحياته في الريف كانت البيئة الأفضل حتى يدرك ماهية الفقر وحقيقته لا أن يكون مجرد سارد لظاهرة اجتماعية لابد من تجربتها والوصول إلى أعمق نقطة فيها. وهنا نجد أن حافظ نال الأفضلية في هذا المجال حيث لا يمكن أن نلمس حقيقة الفقر إن وصفها أحمد شوقي، بل ندرك حقيقة الفقر إن وصفها شاعر النيل.

ومما عرف عن حافظ كرمه الزائد عن اللزوم، ففي عبارة جميلة يصفه أحمد أمين وصفا دقيقا فيقول: لو وضعت الدنيا في يد حافظ لفرقها في يوم واحد. وكانت له القدرة على الإحساس بمعاناة الآخرين من خلال التجارب القاسية التي مرت عليه في حياته الشخصية. « طبع حافظ في الأصل على السماحة وكان لنشأته الفقيرة نسبيا و لبيئته الإجتماعية المتواضعة نوعا ما، أثر في إحساسه بفقر الآخرين ومشاركتهم في البأساء والضراء فما عرف عنه ضن على أحد شيء، أو امتنع من مد يد العون لمن يريد[18]». ونجده في قصيدة أنشدها في حفل أوبرا رعاية الأطفال سنة 1910 يحث فيها على العناية بالفقير وإعانته ومساعدته، ففي ذلك جزاء عند الله عز وجل وراحة نفسية تجعل الفرد يشكر الخالق على ما رزقه وحرم منه غيره، فيقول:

إني أرى فقراءكم في حاجة *** لو تعلمون لقائل فعال

فتسابقوا الخيرات فهي أمامكم *** ميدان سبق للجواد النال

والمحسنون لهم على إحسانهم *** يوم الإثابة عشرة الأمثال

وجزاء رب المحسنين يجل عن *** عد وعن وزن وعن مكيال[19]

وفي قصيدته ملجأ الحرية التي نشرها سنة 1919 يحث على مراعاة الآخرين، وأن لا نعاملهم معاملة سيئة لمجرد أن حياتهم معاناة يومية و حرب دائمة مع الحياة، وهو يقول :

كم طوى البؤس نفوسا لورعت *** منبتا خصبا لكانت جوهرا
كم قضى العدم على موهبة *** فتوارت تحت أطباق الثرى
كل من أحيا يتيما ضائعا *** حسبه من ربه أن يؤجرا
إنما تحمد عقبى أمره *** من لأخراه بدنياه اشترى[20]

2-الحرية:

فالحرية بمستوياتها المختلفة و تمظهراتها المتنوعة مطلب إنسانيّ في كلّ المجتمعات، بحيث يمثّل حضورها في الحياة المجتمعية أو غيابها عنها وضعف وجودها فيها معيارا للفرق بين المجتمعات من حيث التزامها بالعيش تبعا لمقتضى احترام حقوق الإنسان « فالحرية قوام كرامة الإنسان، إنها كرامة وميزة إنسانية شاملة، تتأتى من خلال ممارسة الإنسان لاختياره النير، ومع أن البشر قد يمتلكونها على درجات متفاوتة فإنها ليست امتيازا خاصا لأي فرد، أو جنس، أو طبقة وتنمية الحرية لا تفضل الإنسان عن رفاقه، ولكنها توحي بالقرابة العالمية لذلك فإن ممارستها هي دعوة إنسانية شاملة[21]».

ولأن قضية الحرية كانت قضية شعب بأكمله فقد اختار فيكتور هيجو أن ينقلها للجميع في روايته ويجعل صوتها على لسان ماريوس وغافروش الصغير، هذا الطفل العبقري في تصرفاته وأقواله وإنسانيته. وكان مشهد المتراس الشاهد الأكبر على ثورة الشعب الفرنسي المضطهد من طرف الحكم« وفيما كانت معركة سياسية كاملة تتأهب للعمل في ذلك الموقع ذاته الذي شهد من قبل كثيرا من الأحداث الثورية فيما كان الشباب والجمعيات السرية، والمدارس... وتتلاصق ليهزم بعضها بعضا... بعيدا عن ذلك الحي المشؤوم وخارجه، في أعمق تجاويف باريس التي لا قرار لها، باريس العتيقة القديمة البائسة المختفية تحت زهو باريس السعيدة الموسرة سمع صوت الشعب الكالح يزمجر في سره[22]».

و يصر هيجو على فكرة معينة هي أن الحقيقة لا تدرك من الشكل الخارجي ومن الوجه الأول، فجوهر الأمور يكمن في الباطن فخلف القصور والزينة يقبع بؤس عظيم كان من شأنه تفجير ثورة عظيمة قادرة على قلب موازين فرنسا بأكملها وأن يعلو صوت الشعب المضطهد لأعلى درجاته « صوت رهيب ومقدس، صوت يروع الضعفاء ويحذر الحكماء، صوت ينطلق في الوقت نفسه من أدنى، مثل زئير الأسد، ومن أعلى مثل هزيم الرعد[23]».

وأفضل مشهد عندما نزل غافروش يصرخ في الشوارع وفي ضاحية سان أنطوان بين الجموع ويقود الكبار في الشوارع في مشهد الثورة الذي صوره لنا فيكتور هيجو في مشهد الاستشهاد الغنائي عندما نهض غافروش منتصباً

على قدميه وقد عبثت الريح بشعره..واضعاً يديه على خاصرتيه مسدداً بصره نحو رجال الحرس الوطني المطلقين النار وراح يغني:« إن المرء ليكون بشعا في ناتير، وتلك خطيئة فولتير، وأحمق في باليسو، وتلك خطيئة روسو» فيمكن للقارئ أن يتصور هذا الطفل العبقري، فقد يظهر في البداية أن غافروش مجرد طفل مزعج مثير للمشاكل، لكن موقفه من الثورة ودعمه لماريوس وأصحابه يظهر القومية التي سعى فيكتور هيجو إلى عكسها في عالم البؤساء، فلكل إنسان أهمية مهما كان عمره.

يعد الشاعر حافظ إبراهيم، واحد من أبرز الشعراء العرب في العصر الحديث، ولقد نال لقب "شاعر النيل" لما له من قصائد وطنية عبرت عن حبه لبلده، كما عُرف دائما بغيرته على الأمة ولغتها وهويتها وكرهه للعدوان وقوات الاحتلال، شاعر الشعب لأنه كان إنسانا قبل أن يكون شاعرا فاندمج وسطهم وتعرض لمشاكلهم وهاهو يقول عشقه لمصر:

كم ذا يكابد عاشق ويلاقي *** في حب مصر كثيرة العشاق
إني لأحمل في هواك صبابة *** يا مصر قد خرجت عن الأطواق
لهفي عليك متى أراك طليقة *** يحمي كريم حماك شعب راقي
كلف عجمود الخلال متيم *** بالبذل بين يديك والإنفاق[24]

ولطالما اتسم شعر حافظ بالحياة وكانت له القدرة على نقل صورة الواقع من معاناة الشعب واضطهاده من طرف الاحتلال « وكان قريبًا من الشعب يصور أحداث مجتمعه تصويرًا صادقًا في شعره فشعره ملئ بالأحداث السياسية والوطنية والاجتماعية، وقد أجاد حافظ في فن الرثاء واستطاع أن ينقله من مسألة فردية إلى مسألة اجتماعية، فموت مصطفى كامل كارثة على مصر وعلى الوطنية الحقة فهو يتسلل في حذق ومهارة بعد تصوير الفقيد إلى المسائل الاجتماعية[25]». ويقول حافظ في قصيدته ملجأ الحرية:

يا رجال الجد هذا وقته *** آن أن يعمل كل ما يرى
ملجأ أو مصرفا أو مصنعا *** أو نقابات لزراع القرى
أنا لا أعذر منكم من ونى *** وهو ذو مقدرة أو قصرا
فبادءوا بالملجأ الحر الذي *** جئت للأيدي له مستمطرا[26]

ولذلك كان حافظ جياش العاطفة، يحسن تصوير الآلام والأحزان. لون الحرمان نفسه بألوان من الأخلاق لا تكاد تفارقه فهو لا يعرف المداهنة ولا المصانعة، وينفر من الارستقراطية الكاذبة، ولم يكن يغرق في بحر من الأشجان إنما كان يبدو مشرق الوجه، منبسط النفس، منشرح الصدر، لا تفارق الابتسامة شفتيه ولا تبرح الدعابة ثغره.

في ختام هذه الدراسة المقارنة بين فيكتور هيجو وحافظ إبراهيم لإبراز الجانب الإنساني في رواية البؤساء وأشعار حافظ، نصل إلى مجموعة من النتائج المهمة، والتي نوردها كالآتي:

1. لم يكن الاتجاه الانساني مجرد أفكار من شأنها تعظيم الإنسان وتبجيل حقه في الحياة العادلة والكريمة، بل تعدى إلى كونه طريقة للحياة العادلة والكريمة وهذا من خلال تمتعه الكامل بحقوقه وتحقيقه التام لواجباته الأساسية حتى يتحقق الهدف الأكبر وهو السعادة. ولقد نتج عن ظهور الاتجاه الإنساني التحرر من ظلمة العصور الوسطى والحكم الكنسي الذي حارب العقل والعاطفة، بصورة عامة، والأدب بصفة خاصة.
2. اتفق كلاهما على أن المرأة كائن مضطهد في مجتمع يحكمه الرجل ويسير على قوانينه، فضاعت حقوقها واستغلت سوء استغلال، وعانت من الاحتقار والاضطهاد، في حين من المفروض أن تتمتع بكل الحقوق التي نالها الرجل في المجتمع، وعلى رأسها المساواة في التعليم والعمل.
3. أكد الأديبان على أن الحياة حقا تقوم على الراحة المالية، لكن القيم الأخلاقية تشكل جوهر الحياة وقلبها النابض فلا يمكن لبشر على وجه الأرض أن يحيا دون حب أو شهامة، ودون التضحية في سبيل مبادئه وفي سبيل إعلاء كلمة الحق، وتحقيق العدل.
4. وصف فيكتور هيجو مظاهر الفقر الذي كسى شوارع باريس وكان المظهر الغالب على الشعب الفرنسي، وندد شعر حافظ بحالة الفقر والجهل التي عاش فيها الشعب المصري، وهذا يرجع لحياته الشخصية فقد عرف الفقر والجوع والتشرد، وتعلم معنى الحاجة والضيق في العيش، فاستطاع أن يكون المرآة العاكسة لأوضاع وطنه.
5. إن بروز الاتجاه الإنساني في النتاج الروائي والشعري لدى حافظ إبراهيم وفيكتور هيجو ليس إلا محاولة لتصوير وقائع اجتماعية وحقائق سياسية، وتسليط الضوء على الفساد الذي شمل السياسة ونظام الحكم بأكمله. فالهدف المشترك بين هذين الكاتبين هو تحقيق معادلة هامة تنشأ بين التفاعل الحاصل بين الأنواع الأدبية والرسالة المراد تحقيقها، فينتج عنها تحقق الهدف الأكبر للأدب وهو التعبير الإنساني أو تبني النزعة الإنسانية، ومنه نجد أن حافظ حقق الارتقاء الأدبي الهام واستطاع الوصول لمستوى رواد الأدباء العالميين من خلال رسالته في الحياة.

الهوامش:

[i] – فضل سالم عيسى، النزعة الإنسانية في شعر الرابطة القلمية، دار اليازوري، دط، الأردن، 2006، ص77

[ii] محمد مصطفى هدارة، دراسات في الأدب العربي الحديث، دار العلوم العربية، ط1، لبنان، 1990. ص7

[iii] – جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، ط1، لبنان، 1979 ص165

[iv] –فيكتور هيجو، البؤساء، ترجمة منير البعلبكي، المجلد الأول، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، 1955 ص178

[v] – المصدر نفسه، ص260

[vi] – فيكتور هيجو، البؤساء، ترجمة منير البعلبكي، المجلد الأول، ص331

[7] – المصدرنفسه، ص261

[viii] – المصدر نفسه، ص263

[ix] –حافظ إبراهيم، الديوان، الجزء الأول ط3، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1948، ص298

[x] –محمود الشيخ، الشعر و الشعراء، دار اليازوري، دط، بيروت، 2007،ص11

[11] – حافظ إبراهيم، الديوان، الجزء الأول، ص299

[12] المصدر نفسه، المجلد الأول، ص 142

[13] –فيكتور هيجو، البؤساء، ترجمة منير البعلبكي، الجزء الأول، ص311

[14] المصدر نفسه، ص 203

[15] – عبد الله محمود السعيد، حافظ إبراهيم دراسة تحليلية لسيرته و شعره مركز الدلتا للطباعة دط مصر ص28

[16] – فيكتور هيجو، البؤساء، ترجمة منير البعلبكي، المجلد الأول، ص142

[17] –المصدر نفسه، ص202

[18] – يحي شامي، حافظ إبراهيم حياته و شعره، دار الفكر العربي، ط1، لبنان، 1995 ص18

[19] –حافظ إبراهيم، الديوان، الجزء الأول، ص267

[20] – المصدر نفسه، ص298

[21] – رالف بيري، إنسانية الانسان، ترجمة سلمى الخضراء الجيوشي، مؤسسة المعارف، بيروت، 1989، ص13

[22] –فيكتور هيجو، البؤساء، المجلد المجلد الرابع، ص470

[23] –المصدر نفسه، ص470

[24] – حافظ إبراهيم، الديوان، الجزء الأول، ص267

[25] –طلعت صبح السيد، الاجتماعيات في شعر حافظ إبراهيم، رسالة ماجيستر، جامعة الأزهر، مصر، 2013، ص24

[26] –حافظ إبراهيم، الديوان، الجزء الأول، ص297